رفضت العمل مع ياسر عرفات.. ولطفى الخولى قال له «يوسف يهودى»

4 البحث عن الرجل «الحديدى»

بكى يوسف درويش ٣ مرات.
الأخيرة عندما ماتت زوجته.
اقبال حاسبين (أكد أكثر من مرة على الطريقة الصحيحة لكتابة ونطق اسمها).. فهى من عائلة اصلها مغربى تعيش فى الإسكندرية.
يهودية.
وزميلته فى التنظيم.
تزوجها بعد قصته مع الزوجة الأولى "لونيه"
وهى قصة درامية من وجهة نظره.
" كان عمرى ٢١ سنة.. ابويا مات.. وكنت ابحث عن استقرار بشكل ما.. "
سألته: ".. تقصد عن حب؟"
لا.
كانت اجابته جازمة قاسية!".. هل تشعر بالخجل عندما تتحدث عن الحب.. انتم تعرف فتيات فى سنوات المراهقة..؟!
ابتسم.. وصمت طويلا ليوحى بانه يغير الموضوع.. وانتقل الى حكاية اخرى تماما!".. تعرف انه كانت هناك بيوت دعارة رسمية.. فى كلوت بك.. كان الشباب يذهبون اليها لتفريغ رغبات اجسادهم.. وهى حاجات طبيعية.. للرجل والمرأة.. لا اقهم لماذا تكفل عندنا بهذه الطريقة.. نتيجة هذا التضييق.. الآن الزواج العرفى.. هو الحل.. زمان كانت بيوت الدعارة تحت اشراف الحكومة.. وبرخصة.. وكشف طبى.. انا اتكلمك عن اواخر الثلاثينيات.. اوائل الاربعينيات.. ".
هل زرتها..؟!
خفت ان اسأله.. لكنه اجاب بدون سؤال" .. انا نفسى زرت هذه الأماكن.. ربما قبل سفرى للدراسة فى فرنسا.. ".
سافر يوسف درويش الى فرنسا بعد ان اقنع والده ان الدراسة هناك ارخص.. لكن الأب طلب ان يدرس النجارة.. فوافق وهناك درس الى جانبها الحقوق (لانها كانت مهنة السياسيين الكبار.. كما انها مهنة الخوالى..).
مدرسة الحقوق كانت فى "اكس ابه بروفانس".. هناك عرف فتاة لطيفة اسمها اندريه.. هى التى قادته الى عالم الماركسية والتنظيمات الشيوعية وقدمته الى المؤمنين بها.. وحضر لأول مرة كمستمع فى اجتماع التنظيم.
لم تكن هذه هى الأولى فى فرنسا.. " فى مدينة تولوز (حيث مدرسة التجارة العليا).. عرفت فرنسية كانت معى فى الدرسة.. ثم فتاة بولندية.. لكن اندريه هى التى لن انساها ابدا.. كانت من شمال فرنسا.. واتجاهها تروتسكى (تيار فى الماركسية يسير على مبادىء تروتسكى الذى تمرد على الثورة عندما تحولت الى دولة على يد ستالين لانه يؤمن بان الثورة دائمة..).. "
علق" .. تعرف انتى رأيت تروتسكى يجلس على منبر مثل منبرى الحرية فى باب اللوق.. رأيته ولم اكلمه.. كنت معيل صغير.. ولم اكن اعرف وقتها انه كان هاربا من ستالين وانه مطارد من الاتحاد السوفيتى.. ".
واكمل كان حكاية الفتاة الفرنسية لم تنقطع" .. احببتها جدا جدا .. وكان من المفروض ان نتزوج.. وتأتى لتعيش معى فى مصر.. وتعمل مدرسة للغة الفرنسية.. لكن لم تكن عندى امكانات مالية وقتها.. "
وفى مصر بعد العودة..؟!
ضحك هذه المرة.. " .. عرفت واحدة يونانية كان اسمها صوفى.. حلوة جدا.. بعد ذلك كانت لى مغامرات مع بنات من سوريا أو لبنان.. لا اتذكر.. "
لا مصريات ابدا..؟!
قال بشكل تفسيرى تماما!" .. كان هناك مصريات.. لكن قليل.. "
.. هذا قبل ان يعرف " لونيه ".

1

قابلها فى ندوة.. وأعجبته.
وكانت مناسبة له تماما (يهودية فرنسية).. وليست بعيدة عن الماركسية.
لكن التنظيم لم يوافق على الزواج الا بعد ٦ اشهر.
قالها.. وكان يريد ان يكمل باعتبار ما قاله شىء طبيعى.. فاستوقفته!".. هل يتدخل التنظيم فى مسائل شخصية الى هذا الحد..؟!
طبعا.. " قلت لك انه تنظيم حديدى جدا.. فقد اعترضوا على ان يكون لى نصيب فى ميراث ابى.. لان جزءا منه كان شيوعية نشاط فى رهونات الصاغة.. فيمت نصيبى لاخوتى.. "
وما وجه الاعتراض على زوجتك الاولى..؟!
" الفارق الفكرى بينى وبينها.. وايضا الفارق فى النضال والعطاء.. لكنهم واصلوا فى النهاية.. وتزوجتها.. ويبدو انهم كانوا محقين فى وجهة نظرهم.. تزوجنا.. اثناء ازمة سكن فى مصر.. سنة ١٩٤٠ أو ١٩٤١.. وعثرت على شقة بالصدفة فى الدور الثالث فى العمارة البلجيكية بولاق الدكرور.. يمين بعد نادى الترسانة.. "
فى هذا البيت خصص يوسف درويش غرفة كبيرة لتكون احد فروع مدرسة لمحو الأمية! كان يحضر فى العادة حوالى ٣٠ طالبا.. ولم تكن هذه هى الفصول الوحيدة.. كانت لنا فصول فى بيت عقبة والسبتية وطنطا وكانت انا التى دروسا فى اللغة العربية والحساب والمواد الاجتماعية.. اذهب ٣ مرات اسبوعيا الى بيت عقبة فى جانب الترام التى كانت تتم فى بيتى.. وفى إحدى المحاضرات سربت افكارا ماركسية بشكل عادى.. تماما.. "
هل هذا ماقصد العيا بين يوسف ولينه؟!
هل كان النشاط السياسى يتجاوز حدود البيت..؟!
.. يحكى يوسف درويش نهاية العلاقة على طريقته!".. كانت بيننا خلافات تتفجر من وقت الى آخر.. وفجأة اكتشفت اننا لابد ان نفصل.. حدث الانكشاف بعد ٦ سنوات.. وبطريقة غريبة.. فقد كانت مشيتى متوازنة جدا.. ولم يكن من السهل ان افقد التوازن واسقط حتى لو دفعنى احد ما.. وفى يوم.. كنت امشى من بيتى فى بولاق الى مكتبى فى شارع زكى.. ووجدتنى اسقط فى الشارع بدون مقدمات.. قلت لنفسى.. لا.. لابد ان اغير مسيرة حياتى.. ".

2

لم يلبس يوسف درويش دبلة اقبال حاسبين الا فى عيد زواجه الـ ٥٠.
حكت بسمة لى هذه الحكاية بشرح طفولى.
" الروايات كثيرة عن اختفاء الدبلة.. منها انها سرقت فى السجن.. أو انها ضاعت على اصبعه.. أو ضاعت فى حمام سباحة.. المهم انه لم يلبسها الا بعد مرور كل هذه السنوات.. وحتى الآن.. رغم انها ماتت منذ سنوات"

يوسف درويش واقبال ٤٠ سنة زواجها

يوسف واقبال فى زفاف ابنه صادق سنة ١٩٧٠

اقبال ١٩٤٢

مع الرئيس جمال عبد الناصر وزوجته سوزان الناصر ١٩٧٠

خدمت الزواج سنة ١٩١٧.
هما زملاء تنظيم واحد.. لكنها بعد فترة يبدو انها اكتفت بالجبهة الداخلية (البيت) وتركت له الجبهات الخارجية.. استمرت فى عملها بشركة فيليبس.. واهتمت بصنع استقرار عائلة.. بشهم رجلها اقامة طويلة فى السجن.
لم تغادر السياسة نهائيا "اكتفت ربما ببعض نشاط خفيف فى الاتحاد الاشتراكى.. "
او كما حكت لى ابنتها نولة!".. مرة عندما كانت جميلة بوحريد (مناضلة جزائرية حاكمها الاستعمار الفرنسى بتهمة اشتراكها فى عمليات تحرير بلادها).. خرجت مظاهرة نسائية.. اشتركت فيها اسماء مثل انجى افلاطون..
وانجى رشدى.. وتظاهرنا امام العمارة التى يوجد بها الآن مقر مؤسسة فورد فى جاردن سيتى.. انا كنت صغيرة جدا.. ويومها البوليس حبسنا فى العمارة واغلق علينا البوابة وتركنا نهتف.. "
هذه من المرات النادرة التى رأيت ماما تشترك فى عمل نسائى.. "اعتقد انه فى فترة من الفترات كان لها نشاط مع مجموعة نساء مثل (عقيلة) فاطمة زكى زوجة الاستاذ نبيل الهلالى.. لا اتذكر جيدا.. أم مرة اخرى عندما وقعت حرب ١٩٦٧ قالت لى: لازم تتطوعى تمريض.. ويبدو ان هذا كان جزءا من تكليفات الاتحاد الاشتراكى.. وفعلا ذهبت لكن لا اتعلمت ولا حاجة.
مهمة اقبال الكبيرة كانت تبدأ فى غياب يوسف.. فى السجن.
تقلب الدنيا وتتصل بكل المنظمات (فى مرة كان الواسطة مصطفى الحامى شقيق حمزة البسيونى.. صاحب الماركة المسجلة باسمه فى تاريخ التعذيب..)
وفى المرة التى خرج فيها من المعتقل بعد حل الحزب الشيوعى.. كان يوسف درويش مثل اسد جريح فى غرفة ضيقة.. يدور فى اتجاه الشقة ويحبط رأسه فى الحائط ويصرخ.. وساعدتها وقفت اقبال وقالت له:.. " طيب كفاية سجون.. وخراتيت شوية "
ويومها.. بكيت للمرة الثانية..

3

بجوار صورة ابنتين المحفورة على سطح معدنى على طاولة بجوار المكتبة.. نحتت: رجل ملامحه من النوع الذى تراه فى احياء مصر الشعبية.. يضع على رأسه الطاقية الشبكة المشهورة فى مواسم الحج.. "
سألته: ".. من صاحب الصورة "
قال بنبرة فخورة!" انه سعد عثمان.. مات من فترة قريبة.. "
هو واحد من ٣ زعماء عمال اقتربوا بشدة من يوسف درويش!" .. عندما عرفته اول مرة .. كان فى كشافة الاخوان المسلمين.. نشيط جدا.. لكنه تغير تماما بعد ان عرفته.. لماذا..؟! لانتى لا ابدا الكلام مع العمال عن الماركسية.. اخدمهم اولا.. وانا خدمتهم فعلا بصدق وامانة.. وكانت هذه هى قضيتى.. تعبت فى الدفاع عن حقوق العمال.. وكافحت معهم لاسترداد هذه الحقوق.. وبدأوا يثقون بى.. فربطت لهم اعتصامى واخلاصى بالفكر الماركسى.. فقبلوا الكلام.. والمسألة ليست بسيطة..
.. عندما تعرفت على الدرك.. كنت وقتها مهتما بتاريخ العمال فى مصر.. كنت اذهب الى المكتبة الخديوية ٣ مرات فى الاسبوع وابحث فى الصحف خاصة التى صدرت فى ١٩١٩.. والمون واجمع معلومات عن النقابات والحركة العمالية وزعماء العمال.. "
كان هذا بناء على توزيع ادوار بين الثلاثة المؤسسين:
يوسف درويش (العمال)
احمد صادق سعد (التنظيم)
ريمون دويك (الاوساط الوطنية).
٣ يهود التقوا صدفة.. حين كان يوسف درويش يسير فى شارع الخديوى ولمح لافتة على عمارة انطونيادس مكتوب عليها "عصبة انصار السلام".
هؤلاء الثلاثة هم المؤسسون الاوائل لتنظيم يتميز عن غيره بانه "حديدى" اى من الصعب اختراق اسراره.. وللمميز عضويته بانهم مثقفون جدا" احتجنا ان نقرأ كل تاريخ مصر لكى نفهم.. ونستطيع ان نقدم رؤية حقيقية".
فى ١٩٣٦ بدأت عصبة انصار السلام الاهتمام بالشئون المصرية (استقلال مصر وانهاء الامتيازات الاجنبية.. وعضوية مصر فى عصبة الامم فى لاهاى..)
ويحكى يوسف درويش!" .. ربما اكون قد تعلمت أو رعيت برفض الصهيونية فى عصبة انصار السلام.. وفى فندق الكونتيننتال التقيت بالحاج امين الحسينى قائد الثورة الفلسطينية وقتها.. كان ذلك تقريبا سنة ١٩٣٦ ... وكان معه موسى الخالدى.. وكنت انا وريمون دويك.. "
ريمون دويك الوحيد من الثلاثة الذى لم يشهر اسلامه.
احمد صادق سعد.. كان يهوديا ربانيا وغير اسمه.. (وخفض صوته وهو يحكى عن زوجة صادق سعد وكانت ربانية هى الاخرى ولبنة حاخام لكنها اصبحت غريبة.. ويبدو انها تطرفت.. فقد رفضت مؤخرا ان تصافحنى..).
شعرت بالخجل وانا ابتسم من الحكاية.. وهو كان يشعر بانها مأساة.
بل انها ذكرته بالمرة الثالثة التى بكى فيها.

4

سألته عن تفسير ظاهرة القادة اليهود (بل والمؤسسين) فى تنظيمات اليسار (والماركسية بشكل واضح)..؟!
قال: "كان اليهود كانوا مرتبطين اكثر بالثقافة الغربية.. وكانوا يميلون الى تعليم افضل "
ربما ايضا لان هذه التنظيمات تمنحهم فرصة الاعلان عن مصريتهم.
سمعت من يوسف درويش اسم مارسيل اسرائيل.
لم تكن المرة الاولى. قرأت اسمه اكثر من مرة فى تاريخ النضال ضد الانجليز.. (هو مؤسس اول منظمة شيوعية فى مصر)
عرفت من اوراقه التى نشرت مؤخرا انه ولد بحى يوسف درويش بثلاث سنوات فى شارع نورسينا (بالضاهر)
ابوه ايطالى عاش فى ميت غمر (من كبار ملاك الاراضى الاقطاعيين).
واحد من ١٢٠ يهوديا لم يغادروا مصر ابدا.
ظل يهوديا وتمسك بمصريته حتى ضد رغبة حكوماتها وانظمتها السياسية المختلفة.
سماته ابنته الاولى (منى) لانها اصيبت بمرض يحتاج العلاج فى الخارج.. ورفض لان هذا يعنى انه لن يعود الى مصر.
ابنته الثانية (ماجدة) تزوجت من طبيب كاثوليكى ايطالى الاصل.
والثالثة(نادية) من مصرى مسلم.
وسمى الاصدقاء بينهم " محطة مصر
وهو ظل يهوديا.. ضد خرافة اسرائيل (اشترك مع مارسيل فى الرابطة ضد الصهيونية).. واعتقل لانه ضد كامب ديفيد.. وفى تعبيه كتبت عبارة تلخص فلسفته!" .. لكل انسان اكثر من هوية.. وانا انسان مصرى حين يضطهد المصريون.. اسود حين يضطهد السود.. يهودى حين يضطهد اليهود.. فلسطينى حين يضطهد الفلسطينيون ".

6

يوسف درويش كانت رومانتيكيته اقل.
انهى الاجراءات بشكل اسرع.
اكد جنسيته المصرية (بعقد بيع ارض عثر عليه بين اوراق عمه) يرجع الى القرن التاسع عشر.
واشهر اسلامه.
وكان بعيدا عن مزاج القلق فى عائلته الكبيرة.
كان مشغولا بالسياسة.. بمهمة كرجل صاحب مهمة.. لا حياة له بعيدا عن عالم اختاره بحسم كبير.
ولم يتأثر كثيرا بسفر عائلته كلها الى امريكا عام ١٩٦٢.
عائلة زوجته اقبال سافرت قبلها الى فرنسا عام ١٩٥٦.
فى مرة حاربوه فى الاتحاد الاشتراكى وقالوا له ان شقيق زوجته غادر بورسعيد على بارجة فرنسية فى العدوان الثلاثى.
وعندما وجد البوليس ذات مرة يخبط على بيته عرف انهم يبحثون عن اخيه الكبير زكى (كان متهما مثل بقية اليهود بتهريب الذهب).
هو كان فى مكان آخر.
فى تكوين "التنظيم "
هكذا كان اسمه فى الايام الاولى (بلا اسم كنوع من الاحتياط) ثم اصبح طليعة العمال.. وهو الاسم الاشهر لهذه المنظمة (لا انها اتخذت اسماء عديدة خلال تاريخها القصير. فقد سمى بـ "التنظيم" من قبل اعضائه الذين أسسوه فى اوائل الاربعينيات. وفى سبتمبر عام ١٩٤٦ تبنى التنظيم لفترة مؤقتة اسم " الطليعة الشعبية للتحرر" وكان اعضاؤها هم نفس الفترة لا يتجاوزون خمسة وثلاثين شخصا. وخلال أعوام ١٩٤٥-١٩٤٦ عادة ما كان يشار لهذا التنظيم باسم إحدى صحفه الواسعة الانتشار " الفجر الجديد " حيث كانت تسمى مجموعة الفجر الجديد. وعندما اندمجت مع منظمة شيوعية أخرى عام ١٩٤٩ اتخذت اسم "الطليعة الديمقراطية " وبدلت اسمها إلى حزب العمال والفلاحين الشيوعى المصرى فى عام ١٩٥٧ قبل أن تنضم إلى الحزب الشيوعى المصرى فى نوفمبر ١٩٥٨ (أوراق رول ماير)
فى هذا الانضمام حدثت الواقعة التى يندم عليها يوسف درويش.. فقد كان من المفروض ان يكون فى اللجنة المركزية (وكانت هذه هى الوحدة بين تنظيمه وتنظيم حدتو.. وتنظيم آخر اسمه راية كان من قادته فؤاد مرسى وزير التموين فيما بعد).. لكن تنظيم راية اعترض وقال "ان اصولى اليهودية يمكن ان يريك الناس تجاه التنظيم"
يومها بكيت لأول مرة.
لكننى وافقت لكى لا اكون السبب فى " فركشة الوحدة.
وانا اليوم ارى انتى كنت مخطئا.. لانه كان لابد ان ادافع عن قيمة كبيرة وهى ان الماركسية لا تفرق بين الاديان.. وليست عنصرية.. ولم يكن مهما ان تشكل الوحدة.. لانها كانت فاشلة من الاساس وهذا ما ثبت بعد اشهر قليلة فقط..
ظلت فكرة اليهودى تطارد يوسف درويش (رغم حرص الاجراءات.. ورغم انه على الورق لم يعد يهوديا..).
وفى مرة حضر اجتماعات منظمة التحرير بالجزائر كمراقب.
" كنت مع لطفى الخولى صديقى.. ووجدته يهمس فى اذن ياسر عرفات.. على فكرة يوسف درويش يهودى اصلا.. " ابتسم عرفات وقال لى" .. والله.. ما نيجى نشتغل معانا.. " فشكرته وقلت له" .. انا من المؤمنين بانه يجب ان احل مشكلة بلدى اولا.. ومصر مازالت تحتاج الكثير..
وبدا على ملامح ياسر عرفات انه لم يفهمنى.

7

سألته فجأة: ألم تحب بعد الزواج..؟!
سكت قليلا.
ثم حكى عن ممثلة اسمها امينة نور الدين كانت تمتلك فندقا صغيرا بالزمالك كان محاميها وعندما اغلق مكتبه فى مرة من مرات الاعتقال.. ساعدته ماديا.
كانت جميلة..؟!
.. جدا.. جدا..
هل احببتها..؟!
رد بابتسامة" .. زوجتى كانت تغير منها جدا.. (اكدت نولة الحكاية.. قالت انها كانت كابوس البيت.. وكانت تتعمد مضايقة امى.. ولا اعتقد ان كان الامر وصل الى الحب..)
انه رجل كبير.
متعال على كل التفاصيل الصغيرة فى البيت.
هل كان " سى السيد
ام كان هو المشغول بالقضايا الخطيرة..؟!
هذه حكايات من بين حكايات نولة وبسمة عن يوسف درويش.

حكايات أخرى

◄ ماذا فعلت ابنة يوسف درويش فى اول حصة دين اسلامى؟!

◄ ولماذا قالت لها امها فى السجن أن يوسف قتل لانه ضابط كبير؟

يوليو ٢٠٠٠

يوسف فى حفل استقبال جمعية الاقتصاد السياسى (السبعينيات)

يوسف درويش مع بول جاكو فرنسا.. اغسطس ١٩٧٥

وائل عبدالفتاح

وامه من اصل ايرانى (امها كانت تتكلم العربية وترتدى حتى ايامها الاخيرة الملاءة اللف الحمراء).
كان من الممكن ان يصبح مارسيل واحدا من اثرياء البورصة.
لكنه اختار ان يكون فى صفوف الوطنية المصرية.. وبالتحديد فى التنظيمات الماركسية.. (مهمته المميزة كانت فى تربية كوادر التنظيمات السرية..).
وعندما القى القبض عليه سنة ١٩٤٩.. (كان ممدوح سالم وزير الداخلية فى ١٩٧٧ وقتى بعدما رئيس الحكومة) ضمن تنسيقا فى البوليس السياسى طلبوا منه افشاء اسرار التنظيم (كان ينتمى الى تنظيم حدتو..).. بعد الرفض حكم عليه بخمس سنوات.. انتهت بقرار من جمال عبد الناصر عندما كان وزيرا للداخلية سنة ١٩٥٤.. بابعاده الى ايطاليا.
حكى لى صديقه الفنان التشكيلى عادل السيوى انه كان ممنوعا من دخول مصر.. ومن فرط الحنية.. كان يسافر فى رحلة عبر موانىء البحر المتوسط.. ليحظى بنظرة من بعد الى الاسكندرية.
رومانتيكية من نوع خاص وفريد.
بل كان ضد اسرائيل.. اسس "الرابطة الاسرائيلية لمكافحة الصهيونية "
وكان اول ما فعله حين وصل ايطاليا تقديم طلب الى رئيس الجمهورية بالعودة الى اسم عائلته شبيزى " ليتخلص من اسم اسرائيل.
ولا تتصل به اى رابطة بينه وبين الدولة العنصرية.

5

يوسف درويش كان مختفيا حتى عن شحاتة هارون.